



روضة الدعاة

كيف نستعين بالصبر وندفع الجزع؟ (2 / 2)



الخميس 31 أكتوبر 2019 01:42 ص

كتب: أ. د/ عبد الرحمن البر

[رابط الجزء الأول من المقال](#)

12 - ومنها أن يعلم أن مرازة الدنيا حلاوة الآخرة والعكس بالعكس، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وقال: «حففت الجنّة بال珉اير وحففت النار بالشّهوات».

13 - ومنها أن يعلم أنه يحب رب وهذا يوجب ثقته بمولاه، وأنه إن أسطخه فهو كاذب في محبته، وإن يتسق فقد برهن على ضعف تعقنه وتفصيماته، وكان عمران بن حمدين رضي الله عنه يقول في مرضه: «أحبه إلى أحبه إليه»، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن الله إذا قضى قضاء أحاب أن يرضي به». ولله در القائل:

إذا بليت فتق بالله وارض به إن الذي يكشف التلوي هو الله

إذا قضى الله فاسْتَسْلِمْ لِقُدْرَتِه ما لامريء حيلة فيما قضى الله

الْيَاسُ يَقْطَعُ أَهِيَّاتَ بِضَاحِيه لا تَيَأسَ فَان الصَّاغِعُ اللَّهُ

14 - ومنها: أن يعلم أن الطوارق التي تنزل بالنسان هي من دلائل فضله، والمحن التي تحيبه هي من شواهد نبله. ولذلك إحدى علتين: إما: لأن الكمال مغور والتفحص لازم، فإذا توثر الفضل عليه في شيء صار النقص فيما سواه، فمن رزق الإيمان امتنان بالابتلاء بغير المؤمنين، ومن رزق العقل الوافر امتنان بغض الحال وعداوة الجاهلين. وقد قيل: «من زاد في عقله نقص من رزقه»، وقد قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ فَتَتَّبِعُهُمْ بَعْضُهُمْ لِيَقُولُوا أَهُؤُلَئِكَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ مِنْ يَتَبَّعُ﴾ (الأنعام 53)، وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِيَعْضُضُ فَتَتَّبِعُهُمْ أَنْصَبِرُونَ وَكَانَ رِبُّكَ يَصِيرُهُم﴾ (الفرقان 20) وإنما: لأن هذا الفضل محسود، وبالآذى مقصود. فلا يسلم في يده من معاد واحتياط مُناوئ. وقال الشاعر:

مَحَنُ الْفَقَى يُخْبِرُنَّ عَنْ فَضْلِ الْفَقَى كَالنَّارُ مُخْبِرٌ بِفَضْلِ الْعَنْبَرِ

وقلما تكون محنة فاضل إلا من جهة ناقص، وبلوى عالم إلا على يد جاهل. وذلك لاستخدام العداوة بينهما بالمبaitة، وحدوث الانتقام؛ لاجل التقدّم.

وبغير الإنسان على تلك المحن يترقى في مدارج الكمال، ويبلغ المبنية العالمية التي كتبها الله له، وقد أخرج أحمد وأبو داود عن محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده مرموعاً: «أن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها، ابتلاه الله تعالى في جسده أو في ماله أو في واده، ثم صبره على ذلك حتى يبلغه المبنية التي سبقت له من الله عز وجل».

15 - ومنها: أن يعلم أن سروره مقررون بمساءة غيره، وكذلك حزنه مقررون بسرور غيره. الأمر الذي يولد الحسد في نفوس الآخرين من خصوم دعوه تجاهه فيتهمون بفساد حاله، ويسعون في المكر وإنزال اللذى به، وقد يتجمدون في ذلك إلى حين، فإن ضرب على ما تزل به حتى ينقضى فقد فاز فواً عظيماً، وإن جزع وسخط فقد عرض نفسه للسماته التي تزيده غماً وكذا، وقد قيل:

أضير على كيد الحسود فلن ضربك قاتله
فالنار تأكل بعضها إذا لم تجد ما تأكله

16 - ومنها: أن يعلم أنه إن كان يالم فان شائيه والمتربيين به يالمون أيضاً، لكنه يتميز عليهم بأنه يرجو من الله من الخير ما لا يرجو الآخرون، قال تعالى «ولأنهنوا في أبغاء القوم إن تكونوا تالمون كما يالمون وكان الله عليما حكيم» (النساء 104)، وقال تعالى «ولأنهنوا ولأن تحبوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتبارك الله أيام نذارتها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهادة والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» (آل عمران 139-142).

17 - ومنها: أن يعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسير مع العسر. قال تعالى «فإن مع العسر يسرا» (الشرح 6-5) والفرج أقرب ما يكون مع تعاظم البلاء واستياد الكرب.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مسناصل الحدثان، والجزء من أعوان الرمان».

وقال بعض الحكماء: «يمفتاح عزيمة الصبر تعلج مغاليق الأمور».

وقال بعض البلغاء: «عند انسداد الفرج تبد وطالع الفرج».

الم ثم إن الليل لما تراكمت دجاجاً بدأ وجه الصباح ونوره

18 - وأخيراً: أن يتجلب الأسباب التي تدفع إلى الجزء، والتي ساذكراها بعد قليل.

فإذا ظفر المصاب المبتلى ببعض هذه الأسباب تخففت عنده أحزانه، وتسهلت عليه أشجانه، فصار وشيك السلوة، قليل الجزء، حسن العزاء، رابط الجأش، ثابت النفس، لا تزال منه الأحداث، ولا تزيله الأهوال بفضل الله.

من الأسباب الدافعة إلى الجزء:

إذا كنا قد تناولنا بعض الأسباب المعينة على الصبر؛ فإن من المناسب أن نذكر بعض الأسباب التي تدفع إلى الجزء واليأس؛ حتى يتجلبها المسلم ويتحاشاها:

1 - فمنها تذكر المصاب حتى لا يتNASAه، وتصوره حتى لا يعزب عنه، ولا يجد من التذكرة سلوة، ولا يدخل مع التصور تعزية.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تستفزوا الدموع بالذكر». وقال الشاعر:

ولايُبعثُ الأحزانَ مثلُ التذكر

2 - ومنها: الأسف وشدة الحسارة، فلا يرى من مصابيه خلقاً، ولا يجد لمفقوده بدل، فبرداد بالأسف وله، وبالحسارة هلعاً. وقد علمنا القرآن أن نقول نزول البلاء «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نضيف إليها: «اللهم أوجعني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها»، فقد روى أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أم سلمة: «ما من عبد تحيبه محببة ميقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» اللهم أوجعني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، إلا آجر الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها».

3 - ومنها: كثرة الشكوى وبث الجزء. وقد قيل:

لا تُكثِرُ الشَّكُوْيَ إِلَى الصَّدِيقِ ... وَارْجِعْ إِلَى الْخَالِقِ لَا الْمُخْلُوقَ ... لَا يَخْرُجُ الْغَرِيقُ بِالْغَرِيقِ.

4 - ومنها: اليأس من حضول الخير من مصابيه، والقنوط من إدراكه مطلوبه، فيقترب بحزن الحادثة قنوط الإياس، فلا يقوى معها صبر، ولا يتسع لها صدر. وقد قيل: «المحببة بالصبر أعظم المصيبين». أي أن عدم الصبر على المصيبة أعظم من المصيبة ذاتها.

5 - ومنها: أن يشغل بملأحظة من حيث سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة، واسمنت بالثروة والسعادة. ويرى أنه قد خص من بينهم بالزينة بعد أن كان مساوياً، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافياً، فلا يستطيع شيئاً على بلوي، ولو قابل بهذه النظرة ملأحظة من شاركه في الزينة، وساواه في الحادثة تكافأاً للأمراء، فهان عليه الصبر، وحان منه الفرج ياذن الله.

وفي الختام، ألموا إخوانى وأخواتي أنه قل من ضرب على حادثة وتماسك في تكببة إلا كان انكسافها وشيقاً، وكان الفرج منه قريباً.

ذكر بعض أهل الآدب أن آياً آيوه الكاتب حبس في السجن خمس عشرة سنة، حتى ضاقت حيلته وقل صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكوا له طول حبسه، فرد عليه جواب رفعته بهدا:

صبراً آياً آيوه صبر مبرح

فإذا عجزت عن الخطوب فمن لها

إن الذي عقد الذي انعقدت له

صبراً فان الصبر يعقب راحة

ولعلها أن تنجي واعلها

فأجابه أبو آيوه يقول:

صَبَرْتَنِي وَوَعَظْتَنِي وَأَنَا لَهَا

وَسَنْجَلَنِي بَلْ لَا أَقُولُ لَعْلَهَا

كَرَمًا بِهِ إِذْ كَانَ يَمْلِكُ حَلَّهَا

فَلَمْ يَلْبِثْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّجْنِ إِلَّا أَيَّامًا حَتَّى أُطْلِقَ مُكَرَّماً.

إِذَا اشْتَمَلْتَ عَلَى الْيَاسِ الْفَلُوبُ وَضَاقَ لِمَا يَهِي الصَّدْرُ الرَّحِيبُ

وَأَوْطَنْتَ الْمَكَارَهُ وَاطْمَأَنْتَ وَأَرْسَتَ فِي مَكَانِهَا الْخُطُوبُ

وَلَا أَغْنَى بِحِيَاتِهِ الْأَرِيبُ وَلَمْ تَرَ لِنُكْشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا

أَتَاكَ عَلَى الْأَطْيَفِ الْمُسْتَجِيبُ يَمْنُ بِهِ الْقُنُوطِ مِنْكَ غَوْثُ

وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ فَمَوْضُولٌ بِهَا الْفَرْجُ الْقَرِيبُ

علينا بالدعاء:

إِنَّ الصَّبَرَ عَلَى الْمَحَنِ وَالسَّدَائِدِ لَا يَعْنِي التَّأْثِيرَ عَنِ الدُّعَاءِ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ تَكُونَ الشَّدَّةُ أَكْثَرَ دَفْعَةً لِهِ إِلَى الدُّعَاءِ وَاللُّجوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، بَلِ الشَّدَّةُ وَالْمُحَنَّةُ تَجْعَلُ الدَّاعِيَ فِي حَالَةِ الْأَضْطَرَارِ الَّتِي يُسْتَجَابُ مَعَهَا الدُّعَاءُ «أَمْ مَنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» (النَّمَل)، وَقَدْ اجْتَهَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّعَاءِ فِي بَدْرِ مَعْلُوكٍ بِعِينِهِ بِوَعْدِ اللَّهِ إِيَّاهُ بِالنَّصْرِ، حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَبُوكَرَ، فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُسْتَرِكِينَ وَهُمُ الْأَفْلَقُ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مَائَةٍ وَتِسْعَةُ عَشَرَ حَجَّلًا، فَاسْتَقْبَلَنِي اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَ يَدِيهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِكَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْذِّبْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ مَادِّاً يَدِيهِ مُسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ حَتَّى سَقَطَ رَدَأُوهُ عَنْ مَنْبِيَّهُ، فَأَنَّاهُ أَبُوكَرٌ فَأَنَّهُ رَدَأَهُ فَلَأَقَاهُ عَلَى مَنْبِيَّهُ، ثُمَّ التَّرَمَّهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا تَيَّا اللَّهُ، كَفَاكَ مُنَاسِدُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدْتَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ «إِذْ تَسْتَعْيِثُونَ بِنِعْمَتِنَا مُمْدُوكُمْ بِالْفِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ» (الأنفال ٩) فَمَأْمَدُهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ.

فَلِنُكْثِرُ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ وَالْدُّعَاءِ مَعَ الصَّبَرِ وَالْيَقِينِ، وَلَمْ تَمْلِئْ قُلُوبُنَا يَقِيَّاً بِوَعْدِ اللَّهِ بِالنَّصْرِ لِلْخَابِرِينَ الْمَادِقِينَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

